المحاضرة الثانية

هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحدي الإعلامي

الدكتور محمد نجيب الصرايرة
جامعة اليرموك

الأحد 2 ذو القعدة 1412هـ، 3 أيار 1992م

نحن نعلم أن عقد السبعينيات كان أكث ر العقوداضطراباً في مجالالاتصال الدول ي. ففي تلك الفترة، وبعدها، وجهت موجة من النقدالحاد للنظام الاتصالي"الحر " الذي فشل في إيجاد حلول منطقية وجادةلمشاكل الاتصال الدول. فبقي القوي قوياً، وازداد قوة، في حين بقيالضعيف ضعيفاً وازداد ضعفاً. ولعل من أبرز السمات التي تميز بها النظامالاتصالي "الحر" دوره في خلق فجوة اتصالية عميقة بين الدول "التيتملك" والدول الفقيرة. هذه الفجوة أدت إلى خلق حالة من عدم التوازنفي مجال تدفق المعلومات على المستويين الكمي والكيفي، إضافة إلى تعميقالفجوة القا ئمة بين الجانبين في مجال تقنية الاتصال. ولعل الخلل الذيأصاب النظام الدول ي وبر وز فكرة النظام الدولي الجديد ، يكون مؤشراً واضحاً على تكريس الفجوة القا ئمة ، وتعميقها من خلال إحكام الدولالغربية - وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية- سيطرتها على التقنيةالاتصالية ، وتدفق المعلومات كماًوكيفاً على الصعيد الدولي. هذه السيطرةفيمجال التقنية والمعلومات التي مارستها الدول الغربية وبخاصة الولاياتالمتحدة الأمريكية، والتي ستمارس بشكل أكثر بشاعة في المستقبل عرفتبأسماء مختلفة، منها الغزو الثقافي، والهيمنة الثقافية ، والهيمنة الإعلامية.ويبدو أن هذه التسميات التحديات، تعوزها الدقة وإن كانت الأخيرةأكثر قرباً في دلالاتها للمعني المراد. في هذه المحاضرة، سوف نستعملتعبير "الهيمنة الاتصالية" لأنها تعكس الصورة بشمولية أكبر منها في حالةالهيمنة الإعلامية، حيث تبرز الهيمنة في مجال الاتصال بمظاهر عديدة ،ولا تقتصر على البعد الإعلامي فحسب، بل تشمل أبعاداً أخرى منهاالإعلان، الأفلام والبرام ج المستوردة وكذلك تقنية الاتصال.

أما فيما يتعلق بالتسمية الأولى، الغزو الثقافي، أو الثانية، الهيمنةالثقافية، فهي الأكثر شمولاً،التي تنعكس من خلال أبعاد مختلفة تأخذ

أشكالاً اجتماعية ونفسية واتصالية. فالهيمنة الاتصالية تمثل إحدى مسبباتا لهيمنة الثقافية ، ولا يمكن النظر إليها بمعزل عن المظاهر الأخرى التيذكرناها، والتي تشكل متفاعلة مفهوم الهيمنة الثقافية، التي بدورها تمثلإ حدى صور الهيمنة بم فهومها الشامل. ويبقى لنا أن نتساءل عن معنىالهيمنة الاتصالية، وكيف تنظر إليها المدارس الفكرية. وفي هذا المجالاختل فت الاتجاه ات حول إيجاد تصور واضح أو معنى محدد لهذه الظاهرة.
غير أنه من الممكن حصرها في دائرتين اثنتين:

- **الأولى ممثلة بأنصارنظرية التبعية.**
- **والثانية ممثلة بأنصارنظريةالانتشار.**

نشأت مدرسة "التبعية"أساساً كرد فعل للمعاناة التي عاشتها شعوبالدول النامية من "تجربة نمط النمو الاقتصادي القائم على الاندماجالكامل في السوق العالمي ، والموجه أساساً إلى خدمة احتياجات الدولالصناعية الاستعمارية". ويلخص أنصا ر هذا الاتجاه رؤيتهم في مجالاتصال على الصعيد الوطني لدول العالم الثالث بوصفها امتداداً لما يجريعلى الصعيد الدولي. فوسائل الاتصال في الدول الرأسمالية تمارس دوراً جوهرياً في تحقيق الأرباح من ناحية، والتحكم في الوعي القوميوالاجتماعي بهدف المحافظة على الوضع الراهن.

ه ذه الصورة لا تختلف كثيراً في الدول النامية حيث تتحكم النظم الحاكمة في هذه الدول بمساعدة من الشركات والاحتكارات متع ددةالجنسيات في احتكار و سائل الاتصال وتسخير ه ا لخدمة مصا لحها بحيثتصبح أدوات إعلامية ودعا ئية ت روج لمصالح النخبة السياسية الحاكمة،وبهذا تصبح الدول أسواقاً للمنتجات الاقتصادية والعسكرية والثقافيةللنظم المهيمنة.

ويرىأنصار هذه المدرسة أن النظام الدول السائد يعكس علاقات من

الهيمنة والتبعية. فالنظم المهيمنة تعمل على توسيع هيمنتها وتثبيتها بطرق واعية ومدروسة ، وبأساليب مخطط لها، وذلك بهدف خلق ثقافة عالمية متماثلة هي "الثقافة الاستهلاكية"، وبالتالي إيجاد سوق عالمي واحد يستقبل قيمها الثقافية،ومنتجاتها الاستهلاكية. ويبرز بعض أنصار هذه المدرسةالدور الخطير الذي تلعبه الاحتكارات الأمريكية في المجالين العسكري والاتصالي للمحافظة على تفوقها وهيمنتها في المجالات المختلفة.فالباحث الأمريكي شيلر(Schiller) يشير إلى أن هذه الجهود تأخذشكلين اثنين:

الأول: مباشر عن طريق وزارة الدفاع الأمريكية التي تساهم في وضعالسياسة الوطنية الأمريكية في مجال الاتصال.

الثاني: غير مباشر، عن طريق الشركات الأمريكية الخاصة التي تعدمن أكبر الشركات الأمريكية التي تربطها عقودتجارية كبيرة في مجالالاتصال مع الوزارة المذكورة.

ويؤكد الباحث أن هيمنة وسائل الاتصال الأمريكية مرتبطة بالسياساتالخارجية والدفاعية الأمريكية التي تعتبر وسائل الاتصال إحدى أدواتهاالمهمة، كونها امتداداًطبيعياً لحالة الهيمنة الأمريكية على الصعيد الدولي.ويضيف أن التفوق الذي تسعى السياسة الأمريكية للوصول إليه، يمكنتحقيقه من خلال السيطرة على تقنية الاتصال بكافةأشكالها، بالإضافة إلىتوسيع دائرة النظم الاتصالية التجارية عالمياً،مؤكداً أن الهدف الرئيسوراء ذلك يكمن في المحافظة على الامتيازات الاقتصادية التي تحققت لها،بالإضافةإلى منع حدوث أي تغيير على المستوى الاجتماعي للنظم التابعةمن شأنه أنيحدثتغييراً في الوضع الراهن.

وتلعب الشركات متعددة الجنسيات أثناء توسعها على المستوى الدولي دوراً مهماً في فرض نماذج اقتصادية تشجع على قبول معايير وقيم ثقافيةملائمة لإحداث هذا التوسع، مشيراً إلى أن الأخبار المتعلقة بالشؤون

الداخلية والدولية ، بالإضافةإلى الأفلام ، وأشرطة التسجيل والمجلاتومطبوعات المدارس، وبرامج التلفزيون وغيره اتروج "لأنماط منالحياة" تساعد في عملية تحويل المعايير والقيم المحلية أو الإقليمية ونقلهالتصبح ذات صيغة عالمية. هذه العملية يرافقها انتشار وتركيز للمؤسساتالاقتصادية والمالية المهيمنة داخل النظم التابعة.

أما الاتجاه الآخر الذي يتبناه أنصار نظرية الانتشار ، فيركز مؤيدوه فيرؤيتهم لظاهرة الهيمنة الاتصالية على العملية الوطنية لتنمية وسائلالاتصال، إضافة إلى الدور الذي تلعبه القيم والمعايير الاجتماعية الوطنيةفي تنمية النظم الاتصالية. ويقبل أنصار هذا الاتجاه تشخيص الوضع الحالي للتدفق المعلوماتي القائم على احتكار قلة من الدول لمصادرالمعلومات، وبالتاليتكريس حالة

الاتجاه الأحادي لسريان المعلومات إلاأنهم يطرحون تصوراًمغايراً لمفهوم الهيمنة الاتصالية كما أبرزه مؤيدونظرية التبعية.

يؤكد أنصار "الانتشار" على مفهوم الهيمنة الاتصالية كأداة تحليليةمتميزة، كونها تشمل عدداً من الظواهر الأكثرتحديداً من كونها نمطاً اختباريًّصارماً يرتبط بالهيمنة الثقافية، أو الهيمنة بمفهومها الشامل.

فظاهرة الهيمنة الاتصالية تتضمن:

- تصدير البرامج التلفزيونية من الدول المتقدمة إلى دول العالم الثالث.
- انتشار نماذج النظم الإذاعية والتلفزيونية للدول المتقدمة في دولالعالم الثالث، وغلبة النموذج التجاري عليها.
- الملكية الأجنبية لوسائل الاتصال في الدول النامية.
- السيطرة التي تفرض هذا الدول المتقدمة على السوق الاتصالي الدولي، وغزو الرؤى الرأسمالية للعالم الثالث، وتشويهها للأنماط الوطنيةللدول المستقبلة.

ويرى بعض أنصار هذه المدرسة أن هيمنة وسائل الاتصال الأمريكيةتعود لأسباب متعلقة بطبيعة منتجها الذي يتميز بانخفاض سعره،وارتفاع جاذبيته، وفي الوقت ذاته قدرته على ملاءمة الأذواق الشعبية، بالإضافةإلى أن القدرة الأمريكية أو الأنجلو أمريكية على استيعابالعولمة الاتصالية - وبخاصة في مجال التلفزة - قد أدت إلى تسيد المنتجالغربي دون سواه، وعلى الطرف الآخر وفي الاتجاه نفسه هناك من يرى أن اعتماد دول العالم الثالث على البرامج المستوردة يعود لمجموعة معقدة منالأسباب أكثر من كونها مرتبطة بالرغبة الاستعمارية فقط، أو كون هذهالبرامج ملائمة لأذواق الناس. ويؤكدون أن درجات التبعية متباينة،ومتأثرة بتفاعل عدد من المتغيرات الداخلية مثل البنى التحتية، والنظمالسياسية والاجتماعية والتقاليد الثقافية، والبناء الاقتصادي، وأخرىخارجية مثل: الضغوط من قبل الدول المتقدمة. ويمكن لنا تحديد

مواقعالاختلاف بين الاتجاهين في رؤيتهما لظاهرة الهيمنة الاتصالية في ثلاثةمحاور رئيسية هي:

أولاً: يؤكد أنصار نظرية الانتشار في نظرتهم لظاهرة الهيمنة الاتصاليةعلى العملية الوطنية لتنمية نظم الاتصال، إضافة إلى الدور الذي تلعبهالقيم والمعايير الاجتماعية في تنمية هذه النظم. في حين ينطلق مؤيدونظرية التبعية في دراستهم للمشاكل التنموية، ومنها الاتصالية، في دولالعالم الثالث، من تحليل علاقات القوى الدولية. هذا النظام بنظرهم يقومفي الأساس على خدمة مصالح الدول المتقدمة، ويؤكد أنصار نظريةالتبعية أن الشركات متعددة الجنسيات، بالإضافة إلى المساعدات التيتقدمها الدول المتقدمة للدول النامية، وطبيعة السوق العالمية، وكذلكنظام الأرصدة الدولي، هذه وغيرها تشكل مظاهر التبعية بمفهومهاالشامل.

ثانياً: يرى أنصار نظرية الانتشار أن حالة التبعية هي حالة مؤقتة.

فالدول النامية يمكن لها أن تستعير التقنية والثقافة من الدول المتقدمة ثمبعدها يتم تطوير ه ا، وتكييفها لتتفق والمعايير الثقافية السا ئة. ويشيرمؤيدو ه ذا الاتجاه إلى أن هناك كماً هائلاً من العناصر الثقافية الأجنبية التيتم تكييفها لت لائم الثقافات الوطنية المستقبلة. فخلال ه ذه العملية تبرزحالة من التبعية المبدئية نتيجة للتفاعل مع الثقافات المستوردة، ثم بعدذلك يتم إضفاء شئ من الثقافة الوطنية على العناصر الثقافية المستوردة،بعد ه ا يتنامى، وبشكل نسبي ، التفاعل الثقافي الوطني وعلى الاتجاهالآخر، يرى مؤيدو نظرية التبعية أن النظام الدول ي السا ئ، بما يفرزه منعلاقات دولية قائمة على ا لهيمنة والتبعية، يشكل صيغة تجسد الهيمنة الاتصالية كحالة دائمة وليست مؤقتة.

ثالثاً: يرى أنصار نظرية الانتشار أن وسائل الاتصال تمثل أدواتتخدم عملية التنمية، في حين يرى أنصار الاتجاه المضاد أن النظام الدولي الحالي يمثل وكيلاً للقوى المهيمنة في تثبيت النظام الإعلامي الحر، الذييشكل عقبة أمام تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي المتوازن.

مظاهر الهيمنةالاتصالية في الوطن العربي:

- التدفق الإخباري الدولي : أوضحت المناظرة الدولية في مجالالاتصال خلال السبعينيات والثمانينيات أن سريان المعلومات بشكل عاموالأخبار بشكل خاص يسير باتجاه واحد من الدول المتقدمة إلى الدو لالنامية. وتلعب وكالات الأنباء الغربية دوراًبارزاً في عملية نقلالمعلومات دولياً. وتعتبر هذه الوكالات : الأسوشيتد برس، ويونايتد برسإنترناشيونال، وروي تر،والفرنسية للأنباء، الموزع الرئيس للأنباء علىالصعيد الدولي. وباستثناء عدد قليل من صحف العالم التي تنتمي إلى المعسكر الغربي فإن صحف العالم تعتمد بشكل كبير أو كامل على وكالاتالأنباء، فعلى صعيد الوطن العربي، أشارت إحدى الدراسات إلى أن

7, 46% من الأنباء الدولية التي تم ن شرها في تسع صحف عربية كانتقد نقلت إليه ا عبر الوكالات الغربية الكبرى، وأن 26% نقلت عبروكالات أنباء عربية، وهذه غالباً ما تعتمد بشكل كلي أو جزئي علىالوكالات الغربية و 25% نقلت عن صحف وإذاعات ، وهذه غالباً ماتكو ن غربية، و2% نقلت عن وكالات أنباء تتبع دولاً اشتراكية. وأضافتالدراسة، أ ن الوكالات الغربية الأربع كانت مصدر 43%من الأنباء التينشرتها الصحف العربية حول الوطن العربي ، بينما كانت وكالاتالأنباء العربية مصدر 42% من هذه الأنباء ، وكذلك سيطرتالو كالات الأربع على التدفق الإخباري القادم من الدول النامية بنسبة 50% في حين كانت وكالات الأنباء العربية مصدر 21.2% من هذهالأخبار. وأشارت دراسة أخرى أجريت حول الصحا فةالأردنية إلى أنحوالي 70% من أخبارها الدولية تصل إليها عبر وكالات الأنباء الغربيةالأربع. في حين تتقاسم النسبة الباقية وكالات إقليمية. وأوضحت دراسةأخرى أن صحيفة "الجوردان تايمز " لا تختلف في اعتمادها على الوكالاتالغربية عن ا لصحف الأخرى. و قد أشار التقرير التمهيدي الذي رفعتهالمجموعة المكلفة بدراسة إمكانية إ قامة هيئة عر بية لتبادل الأخبارالتلفزيونية في الوطن العربي ، أن معظم محطات التلفزة العربية يعتمد بشكل كامل على الوكالات الغربية في نقل الأخبار. وقد أشارت دراسةحول تد فق الأفلام الإخبارية للتلفزيو ن الأردني إلى أ ن الوكالات الغربيةمهيمنة بشكل كامل، في حين لم يكن للتلفزيو ن الأردني أي مساه مة فيتبادل الأ فلا م الإخبارية البالغة 500 فيلم كوّنت عينة الدراسة.

وعلى الصعيد الكيفي، فإن وكالات الأنباء الغربية تمارس هيمنة مننوع آخر يمكنتحديدها في شكلين اثنين:

الأول: التركيز على أخبار الأزمات والصراعات أو ما يتصل بمفهومالأخبار السلبية.

الثاني : إقحام الرؤية الخاصة لهذه الوكالات في الأحداث الدولية ، وإعطاء هذه الأحداث وشخوصها صفات ونعوتاً تلائم وجهات نظرهامن خ لال تشويه المعلومات وتلوينها أو التعتيم عليها.

فالوكالات الغربية كانت دائماً متحيزة في تغطيتها للصراع العربيالإسرائيلي، وتقديم الشخصية العربية الإسلامية، وأستشهد هنا بما قالهأحد محرري صحيفة لوس أنجلوس تايمز، الذي أوضح أن الصورة العامةللعربي لدى غالبية الأمريكيين هي إما "مليونير أثر ى من النفط" أو"إرهابي" أو "راكب جمال"، وأحياناً كثيرة تبرز شخصية العربي كونهامزيجاًمركباً من الحالات الثلاث.

إن طرق تشويه المعلومات التي تمار سها وكالات الأنباء العالمية تتع دىحدود نشر معلومات كاذبة، لتأخذ أشكالاً أخرى منها:

- المغالاة في التأكيد على أحداث ليست لها أهمية.
- وضع الحقائق التي لا يرتبط بعضها ببعض في قالب واحد، وعرضهابشكل يوحي بأنها متصلة، وتكوّن حالة واحدة.
- عرض الحقائق بطريقة تولد نتيجة ضمنية تعكس حالة رضا أو حالةإعجاب بم ا يقدمه النظام المهيمن.
- التشويه القائم على خلق حالة مزاجية، وعقلية مسبقة نحو الأحداثوذلك عن طريق تقديم الأحداث ذات الأبعاد المعروفة بأسلوبيخلق حالة خوف، أو شك لا أساس لها من الصحة.
- التشويه من خلال التعتيم، أو عدم نشر أي معلومات متصلة بالحدث ،أو الموقف الذي لا يخدم مصالح الدول التي تنتمي إليها وكالات الأنباء العالمية.

ويمكننا هنا أن نلخص مظاهر الهيمنة التي تمارسها وكالات الأنباءالعالمية بما يلي:

١ - الجانب الكم ي، إذ تهيمن وكالات الأنباء على سوق الأخبار،وبذلك تكرس الاتجا ه الأحادي لسر يان المعلومات.

2- الجانب الكيفي، الذي يتصل بتحريفها للمضامين الإخبارية منخلال تركيزها على الأخبار ذات الطبيعة السلبية، إضافة إلىاستخدامها صفاتٍ ونعوتاً تعكس وجهة النظر الغربية فيالأحداث والزعامات.

٢ - سيادة المعايير والقيم الإخبارية الغربية في وسائل الاتصال العربية ،بحيث أصبحت ه ذه الوسائل نمطاًتقليدياً للنموذج الغربي فيمايتعلق بالأساليب والقيم الإخبارية التي ينظر من خلالهاللأحداث.

البرامج والأفلام المستوردة:

تعتبر ظاهرة استيراد البرامج التل فزيونية والأف لام السينمائية الغربيةبشكل عام ، والأمريكية بشكل خاص أحد المظاهر البارزة ظاهرة الهيمنةالاتصالية على الصعيد الدولي. فللتواجد المكثف لهذ ه البرامج لا ي ه دف إلىالتسلية والترفيه وح سب، بل يسعى بالدرجة الأولى إلى ترويج قيمومعايير اجتماعية وأنماط حيا تية تخ دم خلق ثقافة عالمية تهي ئ الأجواء أمامبروز الأنماط الاستهلاكية واتساعها عالمياً. فقد أشارت إحدى الدراساتحول تدفق البرامج والأخبار التلفزيونية إلى حقيقتين بارزتين:

١ - إن معظم الدول الأقل نمواً تستورد أكثر من نصف البرامجالتلفزيونية التي تعرضها.

٢ - إن الولايات المتحدة هي مصدر ثلاثة أرباع البرامج المستوردة.وتؤكد إحصائيات أخرى أن الدول النامية تستورد 65% منالبرامج والمسلسلات التلفزيونية، وغالبية ما تعرضه من أشرطةسينمائية، فعلى الصعيد العربي استورد المغرب خلال عام 1987

ألفاً وثلاثة وتسعين شريطاً سينمائياً ، في حين استوردت الكويت لاثمئة شريط سينمائي وتلفزيوني. وأشارت دراسة أخرى إلى أننسبة ما استوردته ال دول العربية التي شملتها الدراسة التيأجريت عام 1984، من برامج أجنبية كانت على النحو التالي:

الجزائر 55%،مصر 41%، سورية 35%، تونس 55%، اليمنالديمقراطية (قبل الوحدة) 47% من ساعات البث. وأوضحتدراسة أخرى (1985)، أن البرامج المستوردة في التلفزيون الأردني احتلت ما نسبته 55% من ساعات البث 45% منها استوردت منالولايات المتحدة الأمريكية.

هذه البرامج بالطبع، تعبر عن مجموعة من الأفكار والمواقف ، وبالتاليتنطلق من مجموعة من القيم تعمل على ترويجها بأساليب فنية راقية ، وبإبداع على مستوى الشكل والصياغة يجعل المشاهد أو المستمع في حالةتقبل وتجاوب وإعجاب.

وتعمل مضامين هذه البرامج المستوردة على تشويه صورة الإنسان فيمناطق مختلفة من العالم. فمثلما تربط شخصية السود بالإجرام فإنها كمايقول جاك شاهين تربط شخصية العربي بثلاث صور هي: الثراء الخرافي ، الهمجية والتخلف ، والشبق الجنسي وبخاصة وراء المرأة الغربية.والنتيجة الملاحظة أيضاً أننا في الوطن العربي لا نعرف عن نماذجناالوطنية بمثل معرفتنا عن النماذج الغربية. وبمعرفة أثر البرامج التلفزيونيةالمستوردة نستطيع أن نفسر وجود كثير من الظواهر الغربية التي تغزوحياتنا العربية ، فانتشار نموذج إليزابيث تايلور ، ومايكل جاكسون،ومادونا أو غيرهم، هو ترجمة بديهية لما يبث على شاشات التل فزيون، وأكثرمن هذا فالانتشار السريع للأطباق الغذائية الغربية، والأزياء الغربية هونتيجة لما يشاهد في المسلسلات الغربية.

ويمكن تلخيص الدور الذي تلعبه البرامج والأفلام المستوردة في النقاط التالية:

١. إن تسيُّد المنتج الغربي في هذا المجال يؤ دي إلى خلخلة النظمالاجتماعية في الوطن العربي، وذلك من خلال تحطيم نظم القيمالسائدة، واستبدال نظم غربية بها.

٢. تمثل هذه البرامج قناة تسويقية للمعايير الثقافية والاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية للدول الغربية، وبذلك تصبح الدولالعربية بأنظمتها المختلفة فريسة لهذا الغزو الذي ي سرتهدف ه ويتها واستقلالها الوطني على كافة الأصعدة.

٣. تشويه صورة الإنسان العربي من خلال خلق صور نمطية تحمل مضامين سلبية تجسد التخلف والوحشية في حين ترسم صوراً إيجابية للإنسان الغربي مرتبطة بالتحضر والإنسانية.

الإعلان الدولي:

أثّر التوسع السريع والمكثف للشركات متعددة الجنسيات على المستوىالدول ي بشكل مؤثر في المجال الاتصالي. إذ أوضحت لجنة ماكبرايلدراسة مشاكل الاتصال في العالم أن المرء يستطيع التحدث في الوقتالحاضر عن الاتصال كظا ه رة عالمية، كما هو الحال في المجالاتالاقتصادية، حيث تهيمن بعض الدول المتقدمة على السوق العالمية في مجال ي الخدمات والإنتاج في حقل الاتصال. غير أن التوسع السريع لهذهالشركات لم يكنممكناً في ظل نظام اتصالي دولي مكرس لخدمة حاجاتهاالمعلوماتية والإنتاجية فحسب، بل كان لا بد من نظام اتصالي يعمل علىخلق نظم عالمية تخدم تسويق منتجاتها على المستوى الدولي. ولعلشركات الإعلان الدولية ووكالاتها تمثل أحد أهم الأشكال في مجال

الاتصال، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الشركات الأخرى التي تنتج الحاسوب، والأقمار الصناعية أو أدوات التقنية الحديثة الأخرى.

وتتوزع أهمية هذه الشركات عبر معرفة الأرقام السنوية التي تعكس قيمة الإنفاق السنوي على الإعلان. ففي سنة 1981، بلغ الإنفاق السنوي على الإعلان 64 بليون دولار أمريكي، أكثر من نصفه أنفق على الإعلان في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الوضع يؤكد أن الإعلان الدولي يشكل ظاهرة أمريكية، على الرغم من أن هناك دولاً أخرى مثل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، واليابان وكندا، تنفق كل واحدة منها على الإعلان أكثر من بليون دولار أميركي سنوياً.

ويبدو أن النظم الاتصالية في الوطن العربي قد تأثرت بشكل واضح بنظم الاتصال في الشمال الأمريكي. فقد كرست الأنشطة الاتصالية لخدمة العملية الاستهلاكية (البيع والتسلية)، فالإعلانات التجارية تشجع الصناعات الأجنبية (وبخاصة الأمريكية)، أو الصناعات المقلدة لمنتوجات أجنبية. ونظام الإعلان الأمريكي المهيمن لا يشجع مطلقاً مفاهيم مثل: التقشف أو ترشيد الاستهلاك أو عادات مثل: التوفير وتشجيع الإنتاج المحلي.

ومن الأمثلة البارزة على هيمنة النموذج الغربي في الإعلان أن فتاة الإعلان في الدول النامية، ومنها الدول العربية تحرص على صبغ لون شعرها وتعدل من أسلوب مكياجها، والزي الذي ترتديه حتى تصبح صورة "الكوبونية" لفتاة إعلان أجنبية. وهذه الظاهرة في نظر الكثيرين تساعد على تكريس حالة التمزق الأسري والتردي الأخلاقي، بالإضافة إلى مساهمتها في تنمية النزعة الاستهلاكية داخل عقول الشباب والفتيات. والإعلان الغربي بشكل عام، والأمريكي بشكل خاص، يعمل على خلق ثقافة دولية أو حالة تجانس عالمية تعمل على بروز تماثل في عادات

الاستهلاك. هذا النوع من الإعلانات التجارية أدى إلى وجود ظاهرة"الهيمنة على العقول" بمعنى أن المستهلك أينما كان، يرى أن كل شيء غربي أو أمريكي شئ مرغوب، ويمكن التفاخر به. هذه العملية عملتعلى نقل أنماط الحياة الأمريكية لت صبح عالمية مما أدى إلى افتتاح أسوا قتجارية حيوية للاحتكارات الأمريكية.

وتشكل إعلانات الدول النامية ومنها العر بية، شريحة واسعة في السو قالإعلاني الدولي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ بلغتإعلانات الهند 93 مليون دولار، وإيران 34مليون دولار، ومصر 32مليون دولار، والمغرب 6.6 ملايين دولار والسعودية5 ملاييندولار عام 1971، وهذه الأرقام من الممكن أنها زادت بكثير عما كانتعليه. وفي سنة 1973، أجريت دراسات عن فروع الوكالات الإعلانيةالأجنبية في هذه الدول ، فوجد أن هذه الوكالات في 29 دولة من بين 46دولة أجريت عليها الدراسة كانت ذات ملكية أجنبية ، وفي الغالبأمريكية.

هذه الظاهرة الإعلانية المرعبة دفعت الكثيرين للتحذير من أن الإعلانالدولي قد يقود إلى انحراف في السلوك الاستهلاكي بحيث يقوم الأفرادبإنفاق دخولهم على منتجات يروج لها من خلال أنماط غريبة عن حياتهم.وهذا الوضع يولد بالطبع مشكلات ، وانحرافات على المستويين الاقتصاديوالاجتماعي. وقد لخصت إحدى الباحثات من أمريكا اللاتينية ، التأثيرالذي يحدثه الإعلان الدولي بقولها: "إن أهلنا ملزمون بغسل أسنانهمثلاث مرات يومياً حتى وإن كانوا لا يملكون شيئاً ليأكلوا".

ويمكننا هنا تحديد العلاقة ما بين الإعلان كنمط اتصال، والثقافة فيشكلين اثنين: علاقة الصورة والمرآة، حيث يأخذ الإعلان خواصالصورة المعكوسة بينما تأخذ الثقافة خواص المرآة التي تعكس الصورة.وبشكل أكثر وضوحاً، يقوم الإعلان بعكس المعايير الثقافية من خلال

استعماله‌ا كإطار عام لتزويد المتلقين بمعلومات حقيقية حول المنتج المرا دالإعلان عنه. أما الثانية: فهي العلاقة التبادلية حيث يقوم بالترويج للمنتجمن خ لال خلق أنماط جديدة من الحياة تعمل على إيصال عمليةالاستهلاك إلى المستوى نفسه من الإنتاج.

والملاحظ أن غالبية الإعلانات التي تمر عبر الحدود تأخذ الطابع الثانيحيث تعمل على ترويج قيم ومعايير ، وعادات اجتماعية واقتصادية تمه دلقبول المنتج المراد الإعلان عنه. وهي بذلك تشكل خطر اً داهماً علىالثقافات المستقبلة. وب ذلك فالإعلانات التي تمر عبر الحدو د لا تستهدفالترويج لسلع تجارية وحسب،بل تحمل داخلها قيماً اجتماعية وثقافيةواقتصادية، تهدف إلى تغيير أنم اط الحياة السا ئدة بحيث تتلاءم والنماذجالغربية لتعزز بذلك القيمة الاستهلاكية لدى الأفراد في المجتمعاتالمستقلة.

تقنية الاتصال:

تبرز ه يمنة الدول الغربية في مجال تقنية الاتصال بأشكال مختلفة،بحيث أصبحت تحتكر هذا المجال بشكل شبه كامل، وتستغل كافة الطرقبما فيها العسكرية في منع أي تقدم في الدول النامية ومنها الدول العربية، والعراق خير مثال على ذلك.

تشير الإحصائيات إلى أن 97% من أجهزة التلفزيون و 87% منأجهزة الراديوو 95%، من مصادر الأخبار في الدول النامية، ومنها الدولالعربية مستوردة من دول تتبنى سياسة الاقتصاد الحر. كما تشير دراساتأخرى إلى أن مساهمة الدول النامية في إجم الي إنتاج العقول الإلكترونية في العالم لا تتجاوز (5%) فقط، في حين تهيمن الدول الصناعية على الثروةالمتبقية.

وتظهر دراسات أخرى أن الشركات متعددة الجنسيات ، التي تنتمي إلى عدد من الدول مثل : الولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا ، واليابان،وبريطانيا ، وهولندا وفرنسا تسيطر على صناعة الإلكترونيات التي تشملأجهزة التلفزة، وأجهزة الراديو ، والتلكس ، والتلفون ، وأجهزةالإرسال، والمسجلات وكذلك أجهزة الحاسوب المعقدة ، إذ تسيطر أكبر خمس عشرة شركة في مجال الإلكترونيات على 75% من الإنتاج الصناعيالإلكتروني العالمي في مجال أجهزة الاتصال.

وتهيمن الولايات المتحدة الأمريكية على صناعة الدوائر الالكترونيةالاندماجية حيث تنتج ما نسبته 60 – 70% من إجمالي الإنتاج الدولي فيهذا المجال. وتسيطر خمس شركات أمريكية فقط على إنتاج ما نسبته 80%من الإنتاج الأمريكي في مجال الدوائر الإلكترونية. والصورة ليست مختلفةفي مجال الأقمار الصناعية، فالقطاع الخاص يهيمن على الإنتاج الغربي فيمجال الأقمار الصناعية، إضافة إلى العمليات الاتصالية التي تجري عبر هذهالأقمار. واحتكار الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لهذا المجالخلق العديد من المشكلات السياسية الحساسة مثل السيطرة على المعلوماتالاستراتيجية ، والتعدي على السيادة الوطنية ، واستعمال المدار الجغرافيالثابت،كذلك تثير عملية البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعيةالتي تسمح للجمهور العريض بتلقي الصور التلفزيونية مباشرة عن طريقهوائيات صغيرة، مشاكل أخرى، لا نملك وسائل لحماية أنفسنا منها، فنصبح مهددين بشكل أكثر شراسة في هويتنا الثقافية ، وكذلك مصالحناالتجارية.

إضافة إلى كل ذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد عارضتبشدة أية محاولة من الدول النامية لحجز حصتها في استعمال طيف الموجاتالإذاعية ؛ لأغراض البث عبر الأقمار الصناعية لاستعمالها في المستقبل

واعتبرت الولايات المتحدة أن مثل هذه السياسة تتضمن تبذيراً للموارد، بالإضافة إلى إعاقتها في تطوير تقنية الأقمار الصناعية.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن أكثر من 90% من العلماء والفنيين في مجال التطوير التقنية يعملون لصالح الدول الغنية، وأن 90% من الأنشطة التي تمارس في مجال البحث العلمي لتطوير التقنية متركزة في هذه الدول. فيحين نسمع عن مقتل علماء، واختطاف آخرين يعملون في الدول الفقيرة.

والانتقال، باعتباره نشاطاً اقتصادياً، سار بشكل ملحوظ في تراكم رؤوس الأموال الغربية، حيث حققت الشركات متعددة الجنسيات أرباحاً طائلة، ساهمت دول العالم الثالث بنسبة 60% منها. إذ بلغت استثمارات الشركات الأمريكية العاملة في دول العالم الثالث ما يعادل 22.5 بليون دولار سنة 1987. ولعل أبرز مثال يستشهد به على التراكم المذهل لرأس المال الغربي بسبب هيمنته على عناصر التقنية الحديثة هو شركة الاتصالات الأمريكية (AT&T)، إذ بلغ رأسمالها سنة 1977 (36) بليون دولار، وهذا الرقم يفوق الدخل الإجمالي الوطني لثمانية وثمانين دولة من الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة في تلك الفترة.

وبعد، فهذا هو واقع نظام الاتصال الدولي، وهذه مظاهره المختلفة تطرح أمامنا مجموعة من التحديات التي تستهدف هوية الأمة. وهنا أجد من الضروري التذكير بأن ندوة علمية جمع لها كثير من مفكري الغرب قدت في إحدى الجامعات الفرنسية بعد حرب 1967، كان عنوانها يطرح السؤال الآتي: "هل الأمة العربية قابلة للزوال؟" أذكر في ظل ما يجري ويطرح اليوم وكأننا نعيش في مرحلة التنفيذ بعد أن اكتملت مراحل التجريب.

الأمة وهويتها في خطر... وهذه هي التحديات:

على الصعيد الفكري.. أقول إن الفكر السياسي الإسلامي استطاع أن يضع حداً للجهالة والركود، واستطاع من خلال إيمانه بدوره الحضاري بأن يعيد صياغة المدركات الأوروبية مقدماً بذلك الانطلاقة التي بدأها القديس توماس الإكويني، لتنتهي بحضارة عصر التحرير والتنوير. لقد استطاع الفكر الإسلامي من خلال رموزه الفكرية، الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم أن يقوم بدور حضاري لا يمكن لأحد تجاهله. لكل ذلك كان ممكناً في ظل فكر تكامل فيه الخطاب الفلسفي بالخطاب الديني. ماذا نرى اليوم؟ إشكالية واضحة المعالم بين ما هو فلسفي وما هو ديني. وأكثر من ذلك تمرد الخطاب الفلسفي على الخطاب الديني؛ بحيث أصبحت الهوية الإسلامية مجزأة إلى مجموعة من الهويات المتصارعة، وأصبح الفكر طيّعاً أمام الغزو الخارجي مما سهل تشويهه من خلال زرع قيم جديدة، وتشويه قيم كامنة واستغلال قيم مختلفة... ومارست وسائل الاتصال الغربية والصهيونية عملها بكل يسر في خلق فجوة عميقة بين ما هو عربي وما هو إسلامي، وبرزت ظاهرة التسميم السياسي واستعدائه مستهدفة تفتيت الأمة إلى مجموعة من الأمم0 ومن مظاهر عملية التسميم السياسي على سبيل ضرب أمثلة:

- تسمية الصراع العربي الإسرائيلي بأنه صراع الشرق الأوسط.. هذه التسمية ميزت الفقه العربي وهي في حقيقة الأمر تسمية تفرضها الكثير من التناقضات كما يقول أستاذنا الكبير الدكتور حامد ربيع رحمه الله. عبارة "الشرق الأوسط" يقصد بها في الفقه المتداول تلك المنطقة التي تمتد من مصر حتى إيران شرقاً وتركيا شمالاً. فهل إسرائيل والوجود الغربي بالأوضاع الحالية تمثل أزمة بالنسبة لإيران؟ أو أنها على العكس استطاعت أن تكون إحدى الأدوات المساندة للوجود الإيراني ولأطماعه في منطقة الخليج العربي، ولماذا نذهب بعيداً؟ أليس التخطيط الأمريكي

أساسه خلق بؤر أربع تستطيع تمزيق الوطن العربي من خلال جذب أطرافه، وبالتالي تجزئة الجسد، مستندة في هذه العملية إلى مراكز أربعة محيطة بتلك الأطراف وهي إيران، والحبشة ، وإسرائيل وتركيا. أليست هذه التسمية تعني عزل شمال إفريقيا ابتداءً من ليبيا حتى المغرب ، وقد جرى الفقه المتداول على تسمية تلك المنطقة "بالشرق الأدنى "، ويضيف رحمه الله: إن تسمية مشكلة الوجود العبري بأنها مشكلة الشرق الأوسط يعني خلطاً بين مستويات الصراع القصد منه خلق نوع من التمويه على الضمير العربي ، وربطه بمستويات معينة تختلف عن المستويات الحقيقية التي تمثل محور الأزمة بالنسبة إلى الأمة العربية.

إن عملية التسميم السياسي التي تخضع لها المنطقة ، لها أبعادها المتعددة ونماذجها المتباينة.. بعضها يزرع في المنطقة بأيد أجنبية تمارس فيه وسائل الاتصال الغربية والصهيونية دوراً بارزاً، والآخر يضخم من خلال التعايش مع الأوضاع التي تفرضها لحظات الضعف والتحلل، ولكن هناك أيضاً ما تخلقه إرادتنا الذاتية وتقاليدنا المحلية نتيجة لسطحية أولئك الذين يقودون على أصعدة مختلفة وعدم تخصصهم، ومن هذه الأصعدة المؤسسة الإعلامية.

ويضيف رحمه الله: إن عملية زرع القيم الاقتصادية وما يرتبط منها بقيم الرفاهية والرخاء أو ما نسميه بمجتمع البرجوازية الاستهلاكية المعبر عن أكثر صور الإنسانية السياسية تفعلاً واستحواذاً لم يكن سوى نموذج من نماذج التسميم السياسي يرافقه تشجيع النعرات القومية والطائفية وتشجيع الأقليات تمهيداً لإقامة دولة الإقليم التي تجمع شعوباً ترتبط بإقليم واحد، ولكن معبرة عن تكامل اقتصادي.. وهذا بالطبع يجعلنا نفهم لتصريحات الجديدة التي تدعو إلى تقسيم القدس.. ونفهم أيضاً لماذا يركز زعماء حزب العمل الإسرائيلي - بيريز ورابين - على أن من واجب الدولة الإسرائيلية أن تجعل من منطق دولة الأقليات هدفاً دعائياً واتصالياً.

نحن في حقيقة الأمر نواجه تسميماً فكرياً على أصعدة مختلفة، وصولاً إلى حد ضرب المؤسسة الاجتماعية الأولى في عملية التنشئة الاجتماعية (الأسرة)، بحيث أصبح الدور الريادي الذي يمارس في إعداد الأجيال دوراً دونياً نعمل من داخلنا لضربه مرة تحت شعار حقوق المرأة وأخرى تحت شعار عملها. وكل ذلك بالطبع يستهدف خلق التحلل الحضاري ، وإذابة التكامل القومي، والقضاء على التميز الذاتي، والاستمرارية في الهوية والعمق والارتباط التاريخي.

أما على الصعيد الثقافي، فنحن أمام كم هائل من الثقافة الجماهيرية التي تمر إلى بيوتنا. هذه الثقافة غربية الأصول بشكل عام في ترويجها الأفلام والمسلسلات الأجنبية وتلك المقلدة لها على الصعيد المحلي. هذه الثقافة ذات مستوى واحد، غير أصيلة ولا غنية، غامضة ولا تحفز على الإبداع إنما تكرس التقليد، وتروج ولا قواعد لها.

وقد أشرت عند حديثي عن مظاهر الهيمنة الاتصالية إلى أن ترويج مثل هذا النوع من الثقافة ؛ يهدف إلى خلق ثقافة استهلاكية تمهيداً لجعلنا جزءاً لا يتجزأ من النظام الرأسمالي العالمي الذي يفرض نفسه بميكافلية فاقت التصور أو الخيال.

أما على صعيد تشويه الشخصية العربية داخلياً وخارجياً فتمارس وسائل الاتصال الغربية المهيمن عليها من الفكر الصهيوني أبشع الوسائل لضربنا معنوياً على مستوى الداخل، ورفضنا كنموذج إنساني وحضاري على مستوى الخارج. فالصور النمطية للعربي في الخارج تدور حول الإرهاب، والوحشية، والجنس، وهذه كلها صفات تخرج صاحبها من الدائرة الإنسانية إلى الدائرة الحيوانية. أما على مستوى الداخل فتستهدف فض الإنسان العربي لذاته ، ودفعه للانخراط بما يدور حوله دون تفكير.. وإلا فكيف نفسر تواطؤ المثقفين العرب ودعوتهم لقبول الأمر الواقع ، أو عزوفهم عن المشاركة في المواجهة، واستسلامهم .

أما على الصعيد الإعلامي.. فالأمة العربية والإسلامية تواجه حرباً نفسية متواصلة.. يقابلها على الجانب العربي والإسلامي مظهران متناقضان هما:

أولاً: عدم فهم لأبعاد المعركة والتحدي.. فالمعركة كما يقول د.حامد ربيع- رحمه الله- ليست اقتطاع جزء من الأرض، والتحدي ليس مجردمشكلة منع الوحدة، وإنما السعي نحو تفتيت الحضارة العربية الإسلاميةمن خلال ثلاثة أبعاد تكمل بعضها بعضاً:

- إرادة عربية إسلامية يسعى الغرب والصهيونية لتحطيمها.
- خصم تريد أن تحتويه وتحركه لخدمة أهدافها.
- وحضارة تريد أن تتفتت مقوماتها تمهيداً لعملية الابتلاع الكليةوالشاملة.

ثانياً: فهم خاطئ لطبيعة العملية الإعلامية ، وأدواتها، ورسماستراتيجياتها، ويتمثل ذلك بغياب الطاقات الإعلامية المحصنة والمؤهلة، والتعامل مع العملية الإعلامية بصورة عفوية ، وسطحية مع إغفال واضحللأبعاد الحضارية في العمليات الاتصالية ، يرافقه حالة لا مبالاة واضحةفي إعطاء العمل الإعلامي وزنه الحقيقي.

أود هنا، وفي نهاية هذه المحاضرة، أن أذكّر بأن ندوة علمية جُمع لهاعدد كبير من مفكري الغرب، عقدت في إحدى الجامعات الغربية بعدهزيمة 1967، كان المحور الرئيس الذي ناقشته هو محاولة للإجابة عنالسؤال التالي:

هل الأمة العربية والإسلامية قابلة للزوال؟.